

## الفصل الخامس

### المجادلون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْتَهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة غافر - الآية ٥٦].

١

جاءه عبد الكعبة وآثار رحلة الشام التي عاد منها بادية على وجهه، مغبرة لثيابه، فهو لم يذهب إلى داره، بل حضر إلى دار صديقه ورفيق صباه، بعد أن سمع ما سمع من الذين كانوا في استقبال القافلة، وما إن لقيه حتى سأله في قلق:

- أحقا ما تقوله قريش، من تركك لدين الأجداد، ودعوتك لهجر عبادة الأوثان، وعبادة الله الواحد؟.

فقال محمد ﷺ في هدوء العارفين:

- إى وربى، وانى لأدعوك لأن تهجر الرجز، وتشهد بأن لا إله إلا الله.

قال عبد الكعبة دون تردد أو قلقلة:

- بأبى أنت وأمى، فأهل الصدق أنت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك لرسول الله.

قال رسول الله ﷺ:

- ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له فيه كبوّة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه.

جلس عبد الكعبة بين يدي النبى ﷺ فأسمعه ما كان من أمر الوحي، ثم أسمعه ما أنزل عليه من كلام الله، وهو منصت كل الإنصات، مصغ غاية الإصغاء؛ ولما انتهى النبى ﷺ من حديثه، أخبره عبد الكعبة بالرؤيا التي رأى وهو بالشام، وشرحت قلبه للإسلام:

لقد رأى أن القمر نزل بدور مكة، ثم دخلها دارا دارا، ثم استقر في حجره، وحين قص رؤياه على أحد الكهان ممن يشتغلون بقراءة الطالع وتفسير الأحلام، قال له: إنه سيخرج من دور مكة نبى سيتبعه، وسيكون على ملته.

ولما وصل إلى الديار، سأل:

- هل من جديد ظهر؟

فقالوا له:

- إن صديقك محمدا قد صبا.

قال له محمد:

- هل تريد أن تسمع خبر السماء فيما يقولون؟

قال عبد الكعبة:

- زدنى.

قرأ نبي الله ﷺ: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحَنِينِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنِينِ (١٦) وَالرَّئِيلِ إِذَا عَمَسَ (١٧) وَالصَّبِيحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَقَدْ رَمَاهُ بِالْأَفْئِ الْمِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾

[سورة التكوير - الآيات ١٥ : ٢٩].

آمن «عبد الكعبة» والدمع ينساب مدرارا، على وجهه ولحيته فيغسل كل آثار الإرهاق، وما علق بهما من وعثاء السفر:

- صدقت وصدق من أرسلك بالحق، والله يا محمد إنك ما جئت للناس إلا بالخير، وإن قريشا لفي ضلال عظيم، وأحمد الله أن شاء لي أن أستقيم.

وتبدى جبريل للنبي ﷺ يقرئه السلام، وأنبأه بأن اسم «عبد الكعبة»، بعد أن دخل الإسلام هو: أبو بكر، فلا عبودية إلا لله وحده.

وأبلغ النبي صديقه بالأمر، فامتأ الصديق بالبشر: فأى شرف هذا الذي أفيض عليه من السماء.

وخر أبو بكر ساجدا لله وأناب.

أتلج دخول عبد الكعبة في دين الله صدر النبي، فهو أول مصدق برسالته يفد عليه من خارج داره، فلقد عانى كثيرا من القرشيين، فهم لم يكتفوا بالرفض بل أخذوا يلاحقونه بسخافاتهم، وحتى جاره عقبة بن أبي معيط، وأقرب الناس إليه وعمه عبد العزى بن عبد المطلب وزوجه أم جميل، لم يسلم من أذاهم: فعقبة يترصده بالصغير كلما سمعه يرتل القرآن، ويضع في طريقه الشوك والقاذورات، وقد رفض أن يستمع إليه حين دعاه للإسلام، وأشاح برأسه ساخرا؛ أما عمه فيلاحقه في كل مكان يذهب إليه بالسخرية من كلامه، والاستهزاء بدعوته، والتشكيك فيها وفيه، ليصرف عن الاستجابة له من يميل قلبه لحديثه، خوفا من تحرش عبد العزى وبطشه، بينما امرأته تفعل مثلما يفعل عقبة فترمي الأوساخ أمام باب داره.

وإن هذا التصرف ليكبر عند النبي، ليس حزنا، ولا غضبا مما يناله من إيذاء، ولكن لغرابته لما عرف عن العرب من حسن رعاية الجار، وتقديسا لصلة القربي.

ويسا له من تناقض ذلك الذي يحدث من الأعمام: عمه عبد العزى، وعمه أبى طالب: ذاك يبغضه كل البغض، وهذا يحنو عليه حنو الراعى على غنيماته، ويحيطه بالحب: فأبو طالب، وإن لم يدخل فى دين الإسلام كما دخل ابنه على، إلا أنه لم يقاتل محمدا فيه، ولم يرغم عليا على تركه، بل إنه حين رأى عليا يصلى معه، قال لابنه: - اتبعه فإنه لا يبغى بك إلا خيرا. -  
فنعم الكفيل، ونعم القريب أنت يا أبا طالب..

٢

كان المنتظر مع دخول أبى بكر فى دين الله، مصدقا بمحمد، وبما نزل عليه، وهو من أشهر تجار قريش، بل هو لقريش وزير خزانتها، يأتونونه على أموالهم وذهبهم وتجارتهم، ويحفظون فى داره كل غال ونفيس؛ أن قريشا وسادتها سيتدبرون الأمر، وقد يكون فى تدبرهم ما يجعلهم يعدلون عن تعنتهم وكبرهم، والافتراء على محمد ﷺ، بما يتقولون به فى مجالسهم، فتارة يقولون: إنه مجنون، وتارة أخرى يقولون: إنه شاعر.

لكن ما حدث كان مغايرا لكل توقع، فلقد زاهم دخول أبى بكر فى دين الله كراهية للنبي، بل لقد زادوا من إيدائهم لمحمد، لأن أبا بكر سرعان ما عاد إلى النبي، ومعه عثمان بن عفان، ثم ومعه من هم غير عثمان من سادات قريش وكبرائها ممن شرح الله قلوبهم للإيمان، وهو ما زاد من إحساس القرشيين بخطورة دعوة محمد، واختراقها لصفوفهم، فازدادوا تعنتا وتظاولا على النبي وتكذيبا لرسالته، وقولهم بأنه لم يوح إليه، إنما هو غوى.

ورد عليهم رب العالمين ادعاهم، فنزل جبريل عليه السلام بقول الله تعالى، مقسما، ومبينًا، ولائما، للمدعين على نبيه بما هو ليس فيه: ﴿وَالْتَجِرْ إِذَا هَوَىٰ ۖ ١ مَاصِلَ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَىٰ ۖ ٢ وَمَا يَطُغُ عَنِ أَهْوَىٰ ۖ ٣ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ٤ عَلَيْهِ سَدِيدُ الْفُؤَىٰ ۖ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ ٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۖ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۖ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ ٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ ١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ ١١ أَفَتُؤْمِنُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۖ ١٢﴾ [سورة النجم - الآيات ١ : ١٢].

ولقد عاتبهم ربهم فى عدم تصديقهم لمحمد، وهم من أسموه: الصادق الأمين، وهو ليس بغريب عنهم، فقد لبث فيهم عمرا، فما جربوا عليه كذبا ولا كهانة، ولا سمعوا منه شعرا، ولا رأوا منه تصرفا يدل على اختلال فى العقل، فلماذا يعجبون أن محمدا يوحى إليه من عند الله القادر، فقال فى سورة يونس: ﴿الرَّءْيَا تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۖ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ عُيُونُ ۖ ٢﴾ [سورة يونس - الآيات ١ : ٢].

ثم إنهم بعدم تصديقهم برسالته، وادعائهم عليه بما هو ليس فيه: يجحدون بنعم الله عليهم؛ ونزل جبريل على محمد ﷺ يوضح له هذا جميعه، ويحثه على أن يجرهم، ويفتح عيونهم على مجرمهم لنعم الله التي أنعمها عليهم، وآخرها أنه أكرمهم بأن جعل منهم رسوله الخاتم، ونزل القرآن بلغتهم يخاطبهم في إعجاز لغوى، وهم أهل الفصاحة؛ ويثبت لهم مدى قدرة الله تعالى، أمام ما يعتقدون بقدرتهم عليه، ويتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٣].

ثم يؤكد العليم القدير أنهم لن يستطيعوا، في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [سورة الإسراء - الآية ٨٨].

قبل المشركون التحدى، وراح شعراؤهم وفصحاؤهم، يحاولون محاكاة القرآن؛ وباءت محاولاتهم بالسخرية، والامتعاض، حتى من الذين شجعوهم على المحاولة، وتحقق قول رب العالمين.

ولكن، هل للأعمى أن يرى كساح رجله؟!.

وهل للأصم أن يسمع نكران صوته؟!.

فيها هم أولاء أمام فشلهم المذرى والذى فضحه القرآن، قد لجوا فى عتو ونفور يجادلون بالباطل فقالوا:

- أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير

الأولين؟!.

قال جبريل لمحمد ﷺ اسألهم:

- لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟.

قالوا:

- لله.

قال النبى:

- أفلا تذكرون؟.

ثم استطرد:

- من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟.

قالوا:

- الله.

قال:

- أفلا تتقون؟!.



اللَّهِ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِعَمْرِ عَلِيمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عِطْفِهِ، لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ، فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَيُدْبِقُهُ، يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظُنُّرَ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْبَدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَسَنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبٌ مِنْ نَفْعِهِمْ، لَيْسَ الْمَوْلَى وَكَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ [سورة الحج - الآيات ١ : ١٤].

### ٣

وازداد عدد الداخلين في دين الله، من أهل الذمة والعبيد، بلال، وعمار بن ياسر وغيرهما، وكيف لا يفرون إلى رحمة الله التي جاء بها نبيه ﷺ، لينصفهم من جبروت المجتمع الذي ورثهم وورثهم وأبناءهم للأقوياء، فأهدروا آدميتهم، وذلك من خلال إعلان المساواة بينهم وبين السادة، ورفض العبودية، في قول رب العالمين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [سورة الحجرات - الآية ١٠].

ولكن دخول المستضعفين ممن ليست لهم جذور بين بطون مكة تدفع عنهم الأذى، وتعطيهم الحماية والأمان، وتمنعهم من قريش؛ أعطى فرصة لكبراء قريش، كسى ينفثوا فيهم عن كراهيتهم الشديدة لمن دخل الإسلام من السادة؛ فراحوا يذيقونهم العذاب، ويبطشون بهم، والنبي يألم لهم أكثر مما يألمون، ويطالبهم بالصبر كلما شكوا له حالهم. ثم راح الجمع من قريش يطاردون المسلمين بالطعن والسب في دينهم، ويشوشون عليهم، بالتصفيق والصفير في صلاتهم بالكعبة.

ولم يقف عدوان المشركين عند هذا الحد، فلقد ازدادوا شراسة؛ ورغبة في إحداث المزيد من الأذى للمسلمين، فتحولوا إلى أهلهم؛ فسلبوا ممن دخل الإسلام الأموال، وانتهبوا التجارة، وفرقوا بين الزوج وزوجه، وبين الأب وابنه؛ بل لقد طردت الآباء أبناءهم من الذين آمنوا من رعايتهم، وهم بعد في سن الصبا والحاجة للمعون.

واشتدوا في إيذائهم للنبي، فما هو ذا عقبة بن معيط يحيط بثوبه عنق النبي ﷺ، ويحاول أن يخنقه بينما كان يصلى في الحجر بالكعبة، ويراه أبو بكر رضى الله عنه فيهرول إليه، يدفعه عن النبي بكل ما فيه من عزم وقوة، قائلاً في استنكار: - أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم.

ثم ها هو ذا يكرر الإيذاء، ويقذف بأمعاء جمل مذبوح على ظهر النبي وهو ساجد لله، فلا يرفع النبي رأسه من الصلاة، وتأتي ابنته فاطمة ترفع الوسخ عن ظهره، وهي تبكي وتدعو ربها أن يقتص من الفاعل، وما كان عقبة ليجرؤ على ذلك، لو لم يجد من عم النبي عبد العزى تشجيعا ومؤازرة. وهاكم النضر بن الحارث، بعد عودته من بلاد فارس وقد سمع منهم أساطيرهم التي يسمرون بها، يدعى أن ما يقول محمد ﷺ ما هو إلا أساطير الأولين، ويذهب إلى مجلس النبي ﷺ، ويروح يقاطعه حتى يسكته، ثم يقص ما سمع على من يتحدث إليهم نبي الله، ثم يسألهم بعد أن ينتهي من هرائه، قائلا:

- بالله آينا أحسن قصصا أنا أم محمدا؟.

وها هو ذا أبو جهل عمرو بن هشام يستنفر المشركين، ويطلب منهم الحماية لأنه قد قر قراره على قتل محمد ﷺ، فيقرونه على ما اتتوى، ويباركون قوله، ويعطونه العهد بالأمان، ويجترئ وينتظر بصخرة كبيرة، رفعها بين يديه عاليا ليشج بها رأس النبي وهو ساجد فيقتله؛ وحين يقبل النبي ويستغرق في صلاته، يتقدم أبو جهل بالحجر ليهوى به على رأس النبي، وهو بين يدي الله، ولكن الحجر يلتصق بيديه، فلا يستطيع فعل شيء، بعد أن أصبح الحجر قيذا له، وتحولت أداة القتل من المقتول إلى القاتل تروجه.

أسرع أبو جهل مبتعدا عن النبي ﷺ، وهو يرتعد من شدة الهول الذي أنزله الله به، وأخذ يصرخ في رفاقه وقد ألم به كرب عظيم، ليخلصوه مما هو فيه من بلاء، وهم مجتمعون حوله لا يستطيعون له نفعا، وأصبحت كل أماني أبي جهل أن ينجو بنفسه مما هو فيه، وغادرت فكرة الاعتداء على النبي قلبه؛ هنا فقط سقط الحجر من بين يديه، وسقط أبو جهل في التراب، ومشاعر الهزيمة والعجز والهوان تهد كيانه هدا.

ويرى محمد ما يحاك له.

وهو صابر.

فلم يجأر بالنداء ليستفز أهله من بنى عبد المطلب، وما كانوا ليخذلوه فالأمر هنا نصره لن هو منهم، وليست نصره لدين الله، وما كان هو يحب ذلك، بل إنه ليخفى عنهم كل ذلك التناول، كما أنه لم يلعن المسيئين عند ربه، ولم يدع عليهم كما فعل غيره ممن سبقوه، من رسل وأنبياء، مع العصاة من أقوامهم.

بل هو يعفو ويمارس الصبر، فهكذا علمه ربه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنَ عِزِّ الْأُمُورِ﴾ (١٣)

[سورة الشورى - الآية ٤٣].

هو أيضا يريد أن يكون من أولى العزم.

٤

على رغم أفعال مشركى قريش، ونفورهم الشديد من اتباع دين محمد، فإنهم كانوا يجتمعون خارج

بيت النبي إذا ما أسدل الليل أستاره، ليستمعوا إلى قراءة النبي للقرآن، بل هم لا يخفون افتتاحهم ببلاغة القرآن، ولكنهم لا يجرون على أن يهمسوا بما يحدثه في نفوسهم من أثر، يصل إلى الحد الذي يجعلهم ينصتون، فما يدرون بقدوم القادم عليهم، فهم في رهبة عظيمة مما يتناهى إلى أسماعهم من ترتيل، ثم حين ينتهى النبي من ترتيله لكلام الله، ينتبهون لما فعلوا، ويروحون يتلاومون على إنصاتهم، ويتعاهدون على عدم العودة إلى التنصت والاستماع، ولكنهم لا يصدقون فيما تعاهدوا عليه، ويعودون مرارا إلى التنصت تحت دعاوى كثيرة؛ وإن ظلت قلوبهم فى حسرة يقولون بأمانئهم: لو أن هذا القرآن أنزل على رجل عظيم من مكة أو من الطائف، بدلا من إنزاله على محمد الذى شب يتينا فقيرا لا يملك المال ولا السلطان، إذن لصدقناه واتبعناه؟! .

أو يتمنون لو أن هذا القرآن نزل به ملك، أو لو أن الله أعطى محمدا ﷺ من المعجزات الحسية كتلك التى يتحدث القسس عن قيام نبي الله عيسى بها، من إنزال مائدة من السماء، أو شفاء الأبرص والأعمى بإذن الله.

ولما تحدثوا إلى النبي بهذا قال لهم:

— ألا يكفيكم شرفا أن الله قد خصكم بخيرات كثيرة، فجعل رسوله إلى الناس كافة من بينكم، وأن الله تعالى هو من اختصنى مبلغا لرسالته: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۗ

فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ [سورة يونس - الآية ١٦].

كما أن الله قد أورتكم الكعبة تحظى باحترام العرب، لا يكفون على مدار الأيام عن زيارتها والحج إليها، مما أكسبكم بينهم موقع الاحترام والمهابة، وجعل لكم البيت آمنا يرفل فى عناية الله وحفظه، فى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمِنًا وَنُحِطُّهُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئَّةً لِّبَطِلِ يَوْمَئِذٍ وَنِعْمَ اللَّهُ بِكَافِرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ [سورة العنكبوت - ٦٧ : ٦٨].

كما جعل لكم فى تجارتكم بين اليمن والشام رزقا رغدا: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ [سورة قريش - الآيات ١ : ٤].

وأمام هذا الفضل جميعه، ألم يأن لكم أن تعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف؟.

ثم مالكم تعجبون وتدهشون، وترفض عقولكم تصديق ما يحدث حولكم، وما اختص به الله عبده محمدا ﷺ، وتتهمونه بما ليس فيه: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ [سورة يونس - الآية ٢].

فما بالكم يا قومی لا تبصرون، ولا تعقلون؟!.

..وبعد أن قال لهم نبی الله ﷺ ما أهمه به ربه من قول؛ قام المجادلون من المشركين من مجلسه وهم أكثر عجباً، فلم يفقهوا شيئاً مما قيل لهم، ودهش نبی الله ﷺ غاية الدهشة من حالهم، ونزل جبريل عليه السلام لجلاء الحقيقة، فقال له الله علام الغيوب مبیناً: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ لِيَاكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ﴾ [سورة محمد - الآية ١٦].

وعلى رغم هذا، لم يتوقف دخول من يختص الله بالهداية من الناس، في دين الله، حتى امتلأت بهم دار خديجة على رحابتها، فازداد تجسس جيران نبی الله ﷺ عليه، وكثر تطاولهم على ضيوفه بالسفيه من القول والفعل، ولكن ما السبيل غير الصبر وانتظار نصر الله؟.

٥

بعد مرور ما يزيد على العام من بدء دخول العشرات في دين الله، مرت جماعة من المشركين بموضع صلاة المسلمين في الشعب، حيث كانوا يستخفون عند صلاة الغسق، فسبوا المصلين وسبوا دينهم، وثار تائرة المسلمين غيرة على الله ورسوله، وتشابك الجمعان، وانتصر المسلمون، وشج سعد بن أبي وقاص رأس واحد من المشركين، وتصايحت قريش بأنها لن تترك مسلماً يقرأ القرآن، أو يصلى إلا وستنال منه.

أثار هذا الحادث قلق النبى ﷺ.. وبعد إعمال الفكر وجد أن عليه أن ينأى بهم عن هذه المضايقات، والسبيل الوحيد هو البعد عن مجالس قريش، والبحث عن مكان آخر غير دار خديجة رضى الله عنها، وجاءه الخلاص سريعاً حين عرض الأرقم بن أبى الأرقم داره لكى يقيم بها النبى وكافة المسلمين، وكان عددهم قد قرب من الثلاثين أو يزيد، فاستجاب النبى للدعوة، فلقد كانت الدار كبيرة، كما كانت بعيدة عن مسامع قريش، فهي تكاد تكون وحدها التى بنيت عند جبل الصفا. فى هذه الدار كان الملتقى الأول لكل الذين آمنوا مجتمعين، يدارسهم النبى فيحمل إلى صحابته ما علمه ربه، ويتلو عليهم ما أوحى ويوحى إليه من القرآن، ويرتله ترتيلاً ترتيلاً، ليحفظوه، ويعايشوه. وكان جبريل دائم الحضور يدارس النبى، ويفسر له ما استعصى عليه فهمه من كلام الله، ويشير عليه بما يفصح به لأصحابه من درجات العلم الذى يعلمه له ربه، فهناك من العلم أسرار مهولات لا تحتلمها ألبابهم، ولا تحتلمها أزمانهم، فما تعلم النبى هو على قدر النبى.

ولقد كانت مدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم نواة لمبعث أمة من الخلق تختلف عن سبقتها من أمم، كان محمد ﷺ هو قدوتهم، يتعلمون من أفعاله وأقواله، وكان لب العقيدة ومدخلها: شهادة أن لا إله إلا الله، قولاً وعملاً، فالله واحد أحد فرد صمد، لا يشركه إله فى الملك وليس له امرأة ولا ولد؛ وأن أمر الحياة وما زينها به خالفها: من مال وبنين، ثم موت، وبعث، وحساب، جميعه بيد الله.

وكان القرآن دستورهم بما حملة لهم من رحمة، وما فتح عيونهم عليه من علم، فجعل لحياتهم طعما ومعنى: فلقد علموا أن حياتهم ليست عبثا، وأن بعد الحياة بعثا ونشورا، وأن الأمر ليس كما كانوا يعتقدون: إن هي إلا حياتنا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين؛ وأن الحياة ليست هي نهاية الرحلة بانتهائها ينقضى كل شيء، بل هي دار الاختبار، ثم يردون إلى الله خالقهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة يونس - الآيات ٣ : ٤٤].

إذن عليهم أن يحسنوا سلوكهم، وأن يتقنوا عملهم، فلا سبيل للإنسان للنجاة إلا بعمله، فمنه يكون الجزء: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا مُشْرِكِينَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحِينَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحِينَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحِينَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النجم - الآيات ٣٨ : ٤٣].

وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجرات - الآية ١٣].

وأنه ليست هناك عبودية في الإسلام، فالناس أمام الله سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد، وما أروع عدلك يا رب حين تقول: ﴿وَكَيْتَابًا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ الْفَاسِقَةَ تَجْهَرُ بِهَا وَيُخْفَىٰ لَهَا وَتُكْفَرُ بِهَا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحِينَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة المائدة ٤٥].

فالكل من منبع واحد، ولأصل واحد، هو آدم عليه السلام، كما جاء في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء - الآية ١].

وأن في هذه الحياة الدنيا ما هو حلال وما هو حرام، فكما أحل الله لأدم أن يأكل من طيبات الجنة، حرم عليه وحواء أن يقتريا من الشجرة التي عرفها لهما، أو يستمتع إلى وسوسة الشيطان فيضل ويشقى؛ فالإنسان قد حرم عليه أن يشرك بالله أو يسرق أو يزني أو يقتل أولاده خشية إهلاك، فرزقه ورزقهم على الله، ولا يقتل نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق فمن قتل نفسا بغير نفس أو فساد

فى الأرض فى حاسبه الله وكأنه قتل الناس جمىعا، ولا يأتى ببهتان يفتره من بىن يديه وأرجله، أوىصى فى معروف.

وأن حقىقة الدنيا إلى زوال، وأن الآخرة خىر وأبقى فىها الحىاة الطىبة للمؤمنىن: فلا نصب، ولا متاعب جسد، ولا مشقة.

وأن الدنيا مهما عاش الإنسان من أىامها وسنواتها، فهى قصيرة مهما طالت بالنسبة للآخرة، ففى الآخرة الیوم بألف سنة مما نعد فى دنىانا، والمسلمون هم السابقون الذىن وعدهم رب العالمىن بجنات النعمى: ﴿وَالسَّافِرُونَ السَّافِرُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمَقَرُّونَ ﴿١١﴾ فى جَنَّتِ التَّعْمِیرِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِینَ ﴿١٣﴾ وَقَلِیلٌ مِنَ الْآخِرِینَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِفِینَ عَلَیْهَا مُتَّقِلِیةً ﴿١٦﴾ یَطُوفُ عَلَیْهِمْ وَلَدُنُّنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِینَ وَكُؤُوسٍ مِّنْ مَّعِینٍ ﴿١٨﴾ لَا یُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا یُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهَمَ مِمَّا یَتَخَبَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَیْرِ مِمَّا یَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحَوْرٍ عِینٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ الثَّوْلِی الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جِزَاءً بِمَا كَانُوا یَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا یَسْمَعُونَ فِیْهَا لَهْوًا وَلَا تَأْیِیْمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا یَلَا سَلْطَنًا سَلْطَنًا ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الواقعة - الآیة ٢٦].

وأن الإنسان ما هو والحىاة، إلا كزارع یستعد لیوم جنى الثمار، فإن أحسن الزرع فجنیه جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقین، فىها من الخىرات والمتع مالا عىن رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والمتعة فىها متصلة بلا مشقة ولا معاناة؛ أما إذا زرع ولم یحسن زرعا فهو إلى جهنم یصلى نارا وعذابا وخزىا، وبئس المصیر.

وأمام هذه المعرفة الجدیة: ألا تهون الدنيا علیهم، ویقل شأنها، ویهون أمرها؟.

وقد عرفوا أن الشق الثانى من الشهادة، وهو شهادة أن محمدا نبى الله ورسوله: یعنى الاقتداء والتشبه بخلق وأفعال رسول الله ﷺ.

كان النبى ﷺ أكثرهم حىاء وتواضعا، یجلس وسطهم فلا یستطیع من لا یعرفه أن یمیزه من بىنهم، یفعل ما یفعلون، وإذا قام ثم عاد، یجلس حیث انتهى به المجلس، وكان یقول لهم: لا یمیزونى بىنكم.

ویؤكد تصرفه، فى قوله ﷺ:

- أجلس جلسة العبد، وأكل أكلة العبد، وأحب أن أكون عبدا رسولا، ولا أحب أن أكون ملكا رسولا.

كان نبى الله ﷺ ینزل إلى الأسواق سعیا إلى الارتزاق من عمل یده، فبىبع وبیتاع، حتى لقد عىر الكفار المسلمین بأن الرسول یمشى فى الأسواق لا یمیزه شىء، ولا یتمیز فى شىء، وهو بشر مثلهم: یأكل مما یأكلون، ویشرب مما یشربون، ولئن اتبعتم بشرا مثلکم فإنکم خاسرون!!.

وما كان كفار مكة، وأهل الكبر والصلف یدرون أنهم بتعداد كل هذه الصفات عن النبى ﷺ، إنما یزكونه عند أصحابه.

لقد تسلسل حب نبي الله ﷺ إلى نفوس من معه جارفاً، فسيطر على كل ذرة من ذراتها، وجعلهم يذوبون فيه ذوبانا كاملاً، ثم ارتقى الحب فأصبحوا يؤثرونه على أنفسهم؛ وأصبح الله ورسوله أحب إلى المسلم الأول من الدنيا وما فيها، ومن فيها: فتآلفت القلوب، وانزاحت الدنيا، وتوحد الكل في قولة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كان هذا التآلف يثير عجب المشركين واستنكارهم، فلا مجلس محمد في فخامة وترف مجالسهم، ولا المسلمين يلهون ويستمتعون بسويغات اجتماعهم مثلما هم يفعلون، حيث الخمر والطعام والتغيد الحسان؟.

وكيف لكفار مكة أن يعرفوا، وهم لم يرتفعوا عن حضيض الدنيا المادية، إلى سمو الروحانيات، ليذوقوا شهد الإيمان بالله ورسوله؟!.

بل لقد وصل بهم حال الضياع أن قالوا:

– اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو اثنتا بعذاب أليم. وذلك بدلا من أن يقولوا قول العقلاء:

– اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا إلى سواء السبيل.

وجاءهم رد الرحمن الرحيم، في سورة الأنفال، بأن وجود النبي والمستغفرين لذنبهم من المسلمين يمنع عنهم العذاب لكرامة الحبيب محمد ﷺ عند ربه: ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَلَهُ لِمُعَذِّبِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَهُ مُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢٣) [سورة الأنفال – الآية ٢٣].

٦

وحين اشتد الأذى بصحابة النبي ﷺ، كان جبريل عليه السلام يحمل إليه قصص الأنبياء، ممن سبقوه، وما لا قود من الكفار والمشركين، وما لاقاه المسلمون الأول من عنت وتعذيب فاق ما يتعرض له صحابته بكثير، حتى إن المسلم من أولئك كان يشق إلى نصفين حتى يكفر بالله، فما كان يستجيب، مفضلا الشهادة والجنة التي وعد بها المتقون، على الدنيا وزخرفها، وهي أمور لم يعرف بها قومه. وكانت تلك القصص عظة وعبرة، وتسرية عن النبي ﷺ، لأنه لم يكن يملك دفع الأذى عن أصحابه، وتخفيفا من آلام نفسه الرحيمة التي كانت تتبدد شتاتا حزنا ورأفة بالمعذبين من ضعفاء قريش، كلما رأى أو سمع عن عذابهم الذي وصل إلى حد جلددهم بالسياط، وكبيهم بالنار، وطردهم ببطحاء مكة وقت الظهيرة وهم عراة لكي تفتت الشمس القاسية عظامهم، وتكوى جلودهم، وتوهن عزيمتهم؛ وكان أول من شرف بالشهادة في الإسلام من ضحايا قريش: سمية، زوجة ياسر، وأم عمار وزيد.

ولقد ذهب إلى رسول الله، وفد من المعذبين قائلين:

– يا رسول الله ألا تستنصر لنا؟.

قال رسول الله يا ثا فيهم روح الصبر، ومبشرا بالأبقي:

- كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجاء بمنشار، فيوضع على رأسه فيشق ما دون لحمه وعظمه، وما يصدده ذلك عن دينه؛ والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله تعالى، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون.

ثم استطرد فتلا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [سورة البقرة - الآية ٢١٤].

وأمام هذه المحنة، أخذ أبو بكر يشتري من يستطيع شراءه من المعذبين، رحمة بهم، ثم يعتقهم لوجه الله أحرارا، وحين احتج أبوه قائلا:

- يا بنى اشتر الأقبيا، فيمنعوك من ظلم قريش، بدلا من أن تشتري من لا حول لهم ولا قوة، فلا يستطيعون أن يدفعوا عنك أذى، وإنها لتجارة باثرة.

قال أبو بكر:

- بل هي تجارة مع الله، ومن يتاجر مع الله فتجارته لا تبور.

ولما ازداد ظلم قريش، وأصبح اضطهادهم للمسلمين لا يطاق، جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فبصره، وأرشده، واستجاب النبي وأبلغ أصحابه بما أوحى إليه، قائلا:

- لو خرجتم إلى أرض الحبشة، يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فإن بها ملكا لا يضلم عنده أحد، وهي أرض صدق.

وكانت أول هجرة في سبيل الله لصحابة رسول الله ﷺ، ونفذها عشرة أو يزيد من المسلمين، منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كان فراقهم شاقا على نفس النبي، وإن كتم الأمر وأخفى حزنه وأله عن الصحابة حتى لا يزداد ألمهم لأنه، فتكفيهم مرارة فراق من كانوا لهم إخوانا.

ولقد أعقبت الفئة الأولى من المهاجرين فئة ثانية، تسللت مغادرة من مكة في تخف وحيطة، حتى لا يشعر بهم المشركون، فكانوا ينفلتون أثناء الليل فرادى أو مثنى وثلاثا، ثم يتجمعون عند نقطة

اتفقوا عليها على شاطئ البحر، فيستأجرون مركبا، ويرحلون آمنين إلى أرض الحبشة، وقلوبهم تنزف ألما لفراق الحبيب محمد، وفراق الأهل والأرض؛ وإن كان الأمل لا ينقطع في عودة منتصرة إلى أرض

المولد، وإن داخلتهم سعادة لا تخفى لأن هجرتهم طاعة لأمر الله تعالى، وانتظار لأجره، فلقد قال الله

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَاهَرُوا لِنَبِيِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النحل - الآية ٤١: ٤٢].

كانت هجرة المسلمين مثار خوف كبراء الكفار، وأصحاب الرأي فيهم، لقد تطيروا منها، لأنها تشى بأن دين محمد يغادرهم لحين، ثم يفد عليهم من خارج مكة فيكتسحهم ويثأر منهم ويدمر مناعتهم وعزتهم، ولقد حاولوا في كل هجرة أن يلحقوا بمن يهرب من المسلمين، ولكنهم لم يدركوا أحدا منهم.

ولم تهدأ وساوس قريش، ولم يكف أهل الرأي فيها عن التفكير والكيد لمحمد ﷺ، ولقد شاركهم إبليس في تأمرهم، ثم قرروا أن يعرضوا على النبي ما ظنوا أنه سيغريه، ويدبر رأسه عن ذلك الطريق الذى يهدد نفوذهم، ويبدد هيبتهم بين القبائل، ويكفه عنهم؛ ولقد أنابوا عنهم عتبة بن ربيعة، وهو من حكمائهم، ليقوم إلى محمد فيكلمه، ويعرض عليه ما ارتأوا.

جلس عتبة بين يدي النبي يداهنه، قائلاً:

- يا ابن آخى، إنك منا حيث علمت من الحسب والشرف والفضل، والمكنة فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفيت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آباؤهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنتظر فيها، لعنك تقبل منها بعضها.

قال له النبي ﷺ:

- قل يا أبا الوليد.

قال عتبة:

- يا ابن آخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رؤياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبدلنا فيه أموالنا حتى تبرئك منه.. فإن الجنى يكون أحياناً شديداً على الرجل حتى يداوى منه.

قال محمد الصادق ﷺ:

- أفرغت يا أبا الوليد؟

قال:

- نعم.

قال الأمين ﷺ:

- فاسمع منى.

قال عتبة:

- افعل.

قرأ رسول الله ﷺ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ تَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كَتَبَ



قالوا فى خبث، وقد أعدوا نبال الردة، وأطلقوا سهامهم:

- سحرك والله يا أبا الوليد بكلامه، وأعجبك طعامه، فإن كنت فى حاجة إلى مال جمعنا لك من بيننا ما يغنيك عن طعام محمد.

ونجحت الحيلة على الرجل لأنفته وعزة نفسه، وأصابته السهام، وانتفضت حمية الجاهلية وعنجهية الجهل، فأعلن عتبه أنه لن يكلم محمدا من بعدها أبدا.

وعلى رغم تراجع عتبه عن قوله الحق التى قالها فى محمد، فإنه قد أثار حفيظة بطون قريش، من أن يكون لبنى عبد المطلب شرف النبوة زيادة على ما تميزوا به عنهم من رفادة الحجيج، وحفر زمزم؛ إذن فعليهم أن يمتنعوا تمام هذا الأمر بكل غاك ونفيس.

واجتمع قادة البطون، وتوجهوا إلى أبى طالب، وقالوا له:

- يا أبا طالب لقد عرضنا على محمد أن نهبه من أموالنا حتى يكون أكثرنا مالا، ونوله أمرنا فيكون أعزنا سلطانا، وتكون له الإمرة فينا، ولكنه لم يقبله منا، فاسع إليه، واعرض عليه الأمر، فلعله يقبل منك ما لم يقبله منا، فأنت أقرب إليه، وأحب له من قريش مجتمعة.

بعث أبى طالب فى طلب ابن أخيه، وهو مستبشر بما عرض أهله، وقص عليه ما حدث، ثم تسأل:

- فانظر ماذا ترى؟.

ونظر النبى طويلا فى وجه عمه، وأدركت عينه البصيرة مدى إقبال عمه وقبوله لما عرض عليه، فدمعت عيناه؛ فلقد كان يظن أن عمه قيد أنملة أو أقل، ليدخل فى دين الله، ولم يكن أمام النبى إلا أن يجيب، فقال بعد صمت طال أم قصر:

- والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يتمه الله أو أهلك دونه.

أطرق الشيخ فى تدبير، ثم رفع رأسه، والتقطت عيناه رقرقة الدمع فى عينى الحبيب فتوجع القلب وقال فى عزم:

- أنت وما تريد يا ابن أخى فامض فيما تحب، وما كنت متخلياً عنك أبدا.

٨

سنوات ثلاث والدعوة تتم دون الجهر بها، فالنبى ورفاقه يدعون إلى الإسلام من يثقون به من أهليهم، وكانت استجابة من دخلوا فى دين الله أقل بقليل ممن استكبروا ولجوا فى عتو ونفور. وكان النبى يعرض نفسه على الوفود التى تجىء إلى مكة للحج أو للتجارة، وأهلها ما بين مسترد أو رافض؛ وبينما هو يتحدث إلى أحد الكبراء أملا فى دخوله لدين الله إذا بعمر بن قيس بن

الأصم، وهو ابن خال زوجته خديجة، وهو أعمى قد حسن إسلامه. يسمع صوت النبي، فيقبل عليه مقاطعا يقول:

- يا رسول الله أرشدني.

فأعرض عنه النبي، واستمر في حديثه لمن يحدثه، قائلا:

- أترى فيما أقول بأسا.

فيقول الرجل في غير اهتمام:

- لا.

استغفر النبي ربه، وأرسل في طلب عمرو، وقربه إليه معذرا عما حدث، وسأله عما كان يريد أن يسأل عنه، وأجابته على ما أراد.

ونزل جبريل عليه السلام على نبي الله ﷺ، حاملا عتاب ربه لانصرافه عن عمرو: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۙ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ (٢) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٣) أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى (٤) فَأَنْتَ لَهُ ۙ صَدِّقٌ (٥) وَمَا عَلَيْكَ أَلْيَرُؤَى (٦) وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ بِسَعَى (٧) وَهُوَ يَخْشَى (٨) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (٩)﴾ [سورة عبس - الآيات ١ : ١٠].

ومنذ ذلك اليوم لم ينصرف رسول الله ﷺ عن سائل يسأله حتى ينصرف السائل عنه، وهكذا علمه ربه.

ثم جاءه جبريل عليه السلام بأمر ربه مبلغا بآيات: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٣١٤) وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٣١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٣١٧)﴾ [سورة الشعراء - الآيات ٢١٤ : ٢١٧].

ويسارع النبي بصنع طعام يحمله مع على إلى دار عمه أبي طالب، ثم دعا أعمامه إليه، فإذا بهم يأتون ملبيين ومعهم أبنائهم!!

قال لهم رسول الله ﷺ، يدعوهم إلى الطعام:

- خذوا باسم الله.

ونما لحظوا قلة الطعام أوغلوا فيه حتى لا يكفيهم فيخرجوا رسول الله، ويظهروا فقره، ويحظوا من قدره، فتتقول عنه مكة بأنه أضعف من أن يشبع ضيفه!!

ولكن ما كان الله مخزيا نبيه، فحلت البركة، فأكلوا حتى أصابتهم التخمة من كثرة ما طعموا، وتبقى طعام كثير، فالطعام لا يكاد ينقص؛ وإذا بعمه عبد العزى يقول لمن حوله والغيرة تنهش قلبه:

- والله لقد سحركم صاحبكم.

وضاق صدر رسول الله مما قال الكاذب، وأمسك عن الكلام، وانفض القوم.



ولم تستطع أخته صفية بنت عبد المطلب أن تسكت على غلظته، فقالت له:  
- أى أخسى أحسن بك خذلان ابن أخيك؟.. فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من أصل  
عبد المطلب نبى، وأنه لهو.

لوح عبد العزى بيديه فى وجهها وصرخ فيها:

- هذا والله الباطل، وكلام النساء فى الحجال.

قال أبو طالب فى عزم:

- والله لندافع عنه ما بقينا.

وتفترق الأهل، ولم يستجب منهم أحد إلا من سبق وهما: عمته صفية وعلى؛ ومحمد ﷺ صابر  
فى ظاهره، باك فى أعماقه أسفا وحزنا عليهم، فيهون عليه ربه، ويتنزل الإفصاح العظيم: ﴿طَسَّرَ  
﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي لَمْ تَكُ بَنَجًا فَفَسَّكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ السَّمَاءِ  
آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا  
فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة الشعراء - ١:٦].

وواصل رسول الله الجهر بالدعوة، وحين مر بجماعة من قريش كانت مجتمعة على جبل الصفا،  
وقف يخاطبهم قائلا:

- أرايتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم تكذبوننى؟

قالوا مجمعين:

- والله ما جربنا عليك كذبا.

قال نبى الله ﷺ:

- يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإننى لا أغنى عنكم من الله شيئا، إنى لكم نذير مبين  
بين يدى عذاب شديد، إن مثلى معكم مثل رجل رأى العدو، فانطلق يريد أهله خشية أن يسبق إليهم،  
فجعل يهتف: يا صباحاه، يا صباحاه، أتيتكم، أنا النذير العريان، إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة،  
واليكم خاصة، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء - الآية ٢١٤]. وأنا أدعوكم  
إلى كلمتين خفيقتين على اللسان، ثقيلتين فى الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله؛ فمن  
يجيبنى إلى هذا الأمر، ويؤازرنى على القيام به؟.

وقبل أن يلفظ أحد بكلمة، سارع عبد العزى يقول مؤنبا النبى ﷺ، مسخفا قوله:

- تبا لك، ألهذا جمعتنا.

وانفض القوم، ولم يجبه أحد.

وأُنزل الله من القول ما زلزل كيان عبد العزى، تأديبا له على تناوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

﴿١﴾ مَا أَعْنَى عَنَّهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ

﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ﴿٥﴾ ﴿سورة المسد . الآيات ١ : ٥﴾.

وذاع خبر السورة في قريش وسكب المشركون الزيت على النار، حتى تكون الفتنة من داخل البطن الواحد، خاصة وأبو طالب لا يريد أن يحيد عن دفاعه عن ابن أخيه؛ ويتكفأون مسرعين إلى عبد العزى يسمونه ما أنزل فيه.

ويستشيط أبو لهب غضبا، فيصحب ولديه وكانا قد تزوا من ابنتين من بنات الرسول فيردان زواجهما ويطلقانهما، بل ويتطاولان عليه فيسمعانه ما لا يحب أن يسمع، ويسينان إليه فيتفل أحدهم على وجهه الشريف!!.

وتمسك أم جميل زوج أبي لهب بحجر، وتخرج من دارها صائحة مولولة مقسمة أنها ضاربة فم النبي ﷺ، بذاك الحجر جزءا ما قال.

في الكعبة جلس النبي صلى، وجعله الله في ناحية عين أم جميل العمياء، فلقد كانت عوراء، فلم تر محمدا ﷺ على رغم تدقيقها في وجوه من حولها، فأخذت تسب وتشتتم «مذمما»، ثم انصرفت تأكلها نار غضبها.

وحين صادف أبو جهل رسول الله يطوف بالبيت، لم يستطع أن يخفى غضبته، وسبه سبا مقذعا، فلقد كان يتوقع أن السماء لا بد وأنها قائلة كلمتها فيه هو أيضا، كما قالتها في أبي لهب فيلحقه العار والهوان، كما لحق بصديقه، والرسول ﷺ صابر لا يرد عليه، حتى انتهى من طوافه، وتركه وانصرف.

ويسمع عمه حمزة بن عبد المطلب وهو عائد من القنص، امرأتين تتشددان بما فعل الحكم بن هشام بمحمد، فلم يحتمل حمزة سماع المزيد، وأسرع إلى حيث كان الحكم يجلس مع أصحابه من المشركين، وهوى على رأسه بقوس الصيد فشجه، وقال له متحديا:

— كيف تسب محمدا وأنا على دينه؟.

وما كان حمزة على دين محمد، ولكنه التحدى، وهي حمية الجاهلية الأولى، ولقد شاء الله أن تكون غيرة حمزة لابن أخيه سببا في دخوله في دين الله.

٩

راح أولياء الشيطان يفكرون ويعملون الفكر في تآلف لم يعتده أهل مكة، أهل الشقاق والعصية، والتشردم، فلقد جمعهم الحقد كل التجمع، خاصة وقد اكتشفوا أن التخويف والتعذيب لم ينجحوا في إثناء الناس عن الدخول في دين الله، بل هم يتكاثرون، فيها هو ذا حمزة قد أعلن إسلامه، ثم ها هو ذا أبو ذر الغفاري يحمل الدين الجديد إلى خارج مكة، وبهذا لم يعد الأمر داخل مكة وحدها، بل صار خارجها أيضا، وليس بمستبعد أن يفد صحابة محمد من الخارج، بعد أن فروا إلى النجاشي ملك الحبشة، ليقاتلوه في ديارهم فيخرجوهم، أو يضيعوا أمرهم بين القبائل؛ ولم لا وصحابته يعيشون في

سلام، وينشرون دينهم، وهم إذا ما ذاع أمرهم، وقويت شوكتهم، هلكت قريش. إذن لابد من اتباع أسلوب جديد، فليبعثوا بالهدايا إلى ملك الحبشة وإلى البطارقة من أصحاب النفوذ لديه، وليطلبوا منهم أن يسلموهم من تأوا بدينهم عند مليكهم. تصايح المشركون وقد أدركوا هول الخطر الذى يحيط بهم، وتسابقوا يجمعون الأموال والهدايا التى سيرفعونها إلى النجاشى وبطارقته، وكانوا يعمدون إلى الإعلان عن فعلهم ليغيظوا به المسلمين، ويهزوا ثقتهم، ويوقعوا الرعب فى قلوبهم.

وكان رسول الله ﷺ يسمع، ويألم، ويتوسل إلى رب العالمين أن يحفظ صحابته، وأن يهلك فعل الكافرين؛ ويأتيه جبريل موضحا له معلما مبينا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّمًا لِّأَنَّهُمْ يُفَكِّحُونَ﴾ (٨٣) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٤) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ (٨٦) ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٨٧) ﴿

[سورة مريم - الآيات ٨٣ : ٨٧].

وينزاح القلق سريعا عن نفس نبي الله ﷺ، فلقد علمه ربه أن مكر الله شديد، وأن ما ينتظر صحابته من جزاء فى الآخرة لتهمون أمامه كل المشاق، بل إن الحياة نفسها أمام وعد الله لا تساوى جناح بعوضة.

سافر وفد إلى الحبشة بقيادة اثنين من أحكم رجال قريش، وقد حملوا بالهدايا، وكشف لهم إبليس عن أسهل الطرق للوصول إلى قلوب البطارقة، وعملوا بما علمهم، فتزلفوهم وقدموا لهم الهدايا، وأغروهم بالموافقة على تسليم المهاجرين فوافقهم، ووعدوهم بأن يجعلوا الملك يوافق هو أيضا. هكذا مكروا، ولكن مكر الله أشد، فلقد جعل النجاشى يطلب الاستماع إلى المسلمين قبل أن يتخذ فيهم رأيا.

اختار المهاجرون أن يكون المتكلم عنهم جعفر بن أبى طالب، أخو على وابن عم رسول الله ﷺ، فلما سأله الملك:

- ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الملل؟.

أجاب جعفر قائلا:

- أيها الملك، كنا قوم جاهلية، نعبد الأصنام، وتأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الرحم، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف؛ حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، ووصل الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام؛ فعبدنا الله وحده، واتبعناه على ما جاء به من عند

الله، فحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا؛ فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا عن عبادة الله سبحانه، إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل من الخباثات ما كرهنا؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيعوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك، ورجبنا في جوارك، ورجونا ألا ننظلم عندك.

قال الملك :

- هل معك مما جاء به نبيكم شيء؟

فتلا جعفر: ﴿كَهَيْعِصَ ① ذَكَرْتُ رَبِّيَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا ②﴾ إِذ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرْبُّنِي وَيَرْبِّثْ مِنِّي مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥ يَذْكُرْنَا إِنَّا نَبِّئُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسْعَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ⑩ قَالَ آيَاتُكَ أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ لَيْسَالٍ سَوِيًّا ⑪ فَفَجَعَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَخَّرُوا لُكْرًا وَعَشِيًّا ⑫ يَتَّبِعُنِي خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَمَا آتَيْنَهُ الْمَلِكُمْ صَيْحًا ⑬ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرُكُوءًا وَكَانَتْ نَفِيًّا ⑭ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبْرًا عَصِيًّا ⑮ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ⑯﴾ [سورة مريم - الآيات ١ : ١٥].

فبكى الملك بكاء شديدا حتى ابتلت لحيته، وبكى الأساقفة تأثرا بقول الله، ثم قال الملك للمبعوثين:

- إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجنا من مشكاة واحدة، فانطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم، ولا يكون هذا أبدا.

ولم يهدأ الحقد في نفس عمرو بن العاص، فظل ساهرا الليل بطوله يبحث عن وقية يحدثها بينهم وبين النجاشي، إلى أن ألهمه شيطانه إلى حيلة جعلته متيقنا من أن النجاشي سيسلمهم إليه، إن لم يكن سيأمر بقتلهم.

وما إن أشرق النهار، حتى طلب عمرو المثل بين يدي الملك، فلما أذن له قال:

- أيها الملك العظيم، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا قبيحا، فأرسل واسألهم فيه.

وطلب الملك «جعفرا»، وسأله عن حقيقة ما جاء في مريم ابنة عمران فواصل جعفر القراءة: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ①﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ② قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ③﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ

رَبِّكَ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١١﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٢﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿١٣﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿١٤﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جَنعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴿١٥﴾ فَنَادَىٰهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿١٦﴾ وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجُنْعِ النَّخْلَةِ نُسِقَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿١٧﴾ فَكَلِمَىٰ وَأَشْرَىٰ وَقَرَىٰ عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٨﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١٩﴾ يَتَأَخَذُ هَرُونَ مَا كَانُ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٢﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَفِيًّا ﴿٢٤﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتٍ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٦﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِن وَّلَدٍ مِّسْحِينًا إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴿سورة مريم - الآيات ١٦ : ٣٦﴾.

وهاجت البطارقة، وعلا صوتها احتجاجا على القول بأن عيسى ليس ابن الله، ولكن الملك قال لهم:

- والله ما قال مثل ما قيل إلا عيسى بن مريم، وإن غضبتهم، فردوا على الرسل هداياهم فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي.  
ورد الملك هدايا وفد قريش، وأمر بحفظ جوار المسلمين.

وتحولت شياطين قريش غضبي تبحث عن سبيل جديد لإضعاف موقف محمد، فأرسلوا عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث إلى طيبة، ليسألوا عناة اليهود من الأحبار كيف يكون الكيد لمحمد وصحبه، ويطلبوا منهم الأدلة والبراهين التي تعجزه وتقلل من شأنه، وتشكك في أمر الدين الجديد، فسألهم الأحبار:

- أهو يعرف القراءة والكتابة؟

فنفا قائلين:

- لا نظن أن يكون على دراية بشيء، من ذلك كأغلب أهل مكة.

ثم أضافا قائلين:

- ولقد تبعه على دينه أراذلنا والسفلة منا.

فضحكت الأحبار لذلك، ونصحوهم بأن يحاجوه بأمور حدودها لهما، ستعجزه باليقين.

وعاد المبعوثان إلى مكة، ودعت قريش رسول الله للمناظرة، وقد ملئوا كبرا وثقة في النصر، وسألوه

... ..

۱۱

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

هي وزوجها، وقد أخذته العجب أن تسمع قريش بمثل هذا الذكر الحكيم وتفر منه.

وحين جلس ابن الخطاب، بكل شموخه وقوته وحكمته بين يدي رسول الله ﷺ يزداد استماعا، ويمتلئ خضوعا وخشوعا وخشية لله الواحد، وحين تلا رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْآمُوهُ دُهُ سِيلَتْ ⑧ يَا أَيُّ ذُنُوبِ قُلُوبٍ ⑨﴾ [سورة التكويد - الآيات ١ : ٩].

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى هذا الموضع من الآية، إذا بالنشيج المكتوم يعلو، وإذا بابن الخطاب وكأنما قد أصابته الحمى، فلقد أخذته الرعدة، وتهدج صوته، وقال في رقة بالغة: والله لقد أريتنيها يا رسول الله، وإنى لأرى ابنتي الآن رأى العين وقد أسقطتها في الحفرة لأدفنها، ورحلت أهيل عليها التراب، فإذا بها تمد يدها الصغيرة، فتنفض التراب عن شعر ذقني كلما علق به.

وبكى الرسول ﷺ تأثرا، وهو يستغفر ربه من غلظة القلوب، وغفلة الجاهلية، وبكت الصحابة، وراح النبي ﷺ يسأل عمر معاتبا:  
- أهانت عليك يا عمر؟

فيجيبه عمر وقد زاد ألمه وندمه، قائلا:

- والله إنها الجهالة يا رسول الله، فهل ربي غافر لي؟

قال النبي ﷺ:

- يا عمر.. يقول رب العزة سبحانه وتعالى:

«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة..» يا عمر يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ⑩﴾ [سورة البقرة - الآية ١٦٠]، فاستغفر لذنبك.

قام عمر من بين يدي رسول الله، ولسانه لا يكف عن الاستغفار، وقد أراحه ما علم، وزاده تثبنا وإيمانا، وأصبح كل همه أن يعلن للملأ من مشركي قريش إسلامه.

ذهب أول ما ذهب إلى خاله، أبي جهل عمرو بن هشام، طرق عليه الباب، وحين فتح له، هش في وجهه وقال له:

- ألا أبشرك ببشارة؟

قال خاله:

- وما هي؟.

قال ابن الخطاب:

- إنى آمنت بالله ورسوله محمد بن عبد الله، وما أنزل عليه.

صفق أبو جهل الباب فى وجهه، وهو يزأر:

- قبحك الله، وقبح ما بشرتنى به.

لم يكتف ابن الخطاب بما فعل، بل ذهب إلى «جميل بن حبيب» فى مجلسه بجوار الكعبة، وكان

ممن عرف عنهم سرعة نقل الحديث، فمال عليه وقال له:

- أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت، ودخلت فى دين محمد؟.

انتفض جميل يصرخ فيمن بالجامع:

- يا معشر قريش ألا إن ابن الخطاب قد صيأ.

وكان عمر يقف وراءه فزجره قائلاً:

- كذبت، بل إنى قد أسلمت وتبعت دين محمد، وشهدت بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً

رسول الله.

تنافر الموجودون بالجامع، وحملوا على عمر، وقفز عتبة بن ربيعة على ظهره فطرحه عمر أرضاً

ووضع إصبه فى عينه فصار يصرخ مستجيراً، فتكالب الناس على "عمر" يضربونه ويضربهم حتى

تمكنوا منه فطرحوه أرضاً.

وجاء فرج الله بظهور أبى جهل، فقد صعد بأعلى مكان مستكشفاً ما يحدث، وأنطقه الله، فصرخ

فى الناس معلناً أنه مجير ابن أخته، فانفضوا عن عمر.

وفى الصباح ألح عمر على رسول الله ﷺ إلحاحاً شديداً أن يظهر صلاتهم، ويخرج مع المسلمين

إلى الجامع ليصلوا فى الكعبة، واستجاب النبى لرجائه، وخرج المسلمون صفوفاً يتقدمهم عمر ويحمى

مؤخرتهم حمزة، ودخلوا إلى المسجد.

كان المشهد مهيباً، وزادت المفاجأة من وقعه على النفوس، فبدأ أكثر هيبة وأشد وطأة، فلم يكن أحد

فى مكة كلها، حتى المسلمين: من أظهر منهم إسلامه، ومن أخفاه، يرقى تصويره إلى هذا المشهد الذى

خرج فيه المسلمون، وفاجأ به ابن الخطاب الحياة جميعها.. فأصيب الكفار بالفرع، وانتابتهم الفرقة،

فلم يتنادوا، ولم يجتمعوا، بل انصرف كل منهم إلى ما هو فيه من شأن، فلم يعترضوا سبيل المسلمين،

حتى انتهى المسلمون من صلاتهم وغادروا المسجد، بعد إذ صاروا يتنادون ويتلاومون على ما فرطوا فيه

من ترك للمسلمين.

ومنذ ذلك اليوم سُمى عمر بن الخطاب: الفاروق، لأنه فرق بين الحق والباطل.

وتناقلت الألسن نصرة المسلمين، وكما تسرى النار فى الهشيم لا تفرق بين أخضر ويابس، ولا بين

حق وباطل، أو كذب وصدق، ولما وصل الخبر إلى المهاجرين بالحبشة، صار يقول:

- لقد دخل أهل مكة فى دين الله أفواجا.

وجعلت الفرحة من أمضهم الشوق إلى الوطن يتدافعون عائدين إلى قريتهم: فلم لا يعودون والحال قد أصبح كذلك.. ولم يبقون في الغربية بعيدا عن الحبيب والأحبة؟!.

كان وقع عودتهم على الكفار كسكب القار على النار، فازدادت كراهيتهم لرسول الله اشتعالا لتلتهم البقية الباقية من العقل والتعلل، ولم يعد أمام أنصار إبليس من سبيل سوى قتل الرسول، فلقد أدركوا بعد أن سلكوا كل السبيل: أنه لن يوقف دعوته إلا القتل، واجتمع رأيهم على أنه لا سبيل للخلاص منه إلا بقاء منهم: في ظاهره التضحية، وباطنه المكر والخداع، وذهبوا إلى أبي طالب ومعهم أمّ ملح فتيان قريش قائلين:

- يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد وأجمل فتى في قريش، فخذها واتخذها ولدا فهو لك، وسلم لنا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعتنا وسفه أحلامنا.. فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

وتألفت بصيرة أبي طالب، فكأنه قد سمع ورأى كل ما تآمروا عليه، فأجابهم متعجبا من غرابة منطقهم:

- والله لبئس ما تسامونني عليه، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيتكم ابني تقتلونه؛ هذا والله مالا يكون أبدا.

ويمنطق الضلال الذي كانت قريش عليه قالوا:

- واللوات لقد أنصفتك قومك يا أبا طالب، وجهدنا على التخلص مما تكره، فما نراك تريد أن تقبل منا شيئا.

وانصرفوا من عنده غاضبين..

ولكن رحي القتل لم تنصرف عنهم، ودارت بالحدق تطحن عظام رؤوسهم، قبل أن تشخذ عقولهم، وقر قرارهم بعد جدل طويل شارك فيه إبليس، بأن السبيل للخلاص من محمد سيكون أهون، لو بعدوا عن القيام بقتله بأيديهم، فما رأوا عليه ابا طالب يؤكد أن دم محمد لن يتفرق بينهم، وسوف يطالب به بنو عبد المطلب، إن لم يكن بنو هاشم وأنسابهم وأنصارهم، وقر رأى المتآمرين على استئجار شخص من خارج قريش ليقوم بعملية القتل، ويدفع المتآمرون دية محمد لأهله من بنى هاشم.

ولما عرضوا الأمر على بنى هاشم أبوا، وآزرهم في ذلك بنو عبد المطلب بن عبد مناف.

اشتد الغضب بالمتآمرين، وتنادوا وتنافروا، ثم أجمعوا على أن يخرجوا من بينهم الراضين لقتل محمد، وينذوهم ويحاصروهم في شعب أبي طالب.

وحين علم رسول الله ﷺ بما عزمتم عليه قريش، أشار على صحابته ممن عادوا إلى مكة من المهجر، أن يلحقوا هم وغيرهم من المسلمين، بإخوانهم الذين بقوا بالحبشة، وأن يفروا بدينهم.

أما محمد ﷺ فبقي بمكة مع قلة قليلة من الصحابة، صابرا محتسبا..

